نظرية الضرورة في كتاب سيبويه

الدكتور محمد خير الحلواني

لم يخطىء القدماء حين وصفوا كتاب سيبويه بأنه قرآن النحو ، فقد وجدوا الخالفين من النحاة ينهلون منه بلا تحفظ ، ويحكمونه فيما شجر بينهم ؛ وليس بمستنكر أن يطلق عليه المعاصرون هذا اللقب ، لان كثيراً من آرائه وطرائقه تبدو لهم جديدة كلما امتد بها الزمان ، حتى لتجد فيها معالم واضحة من بحوث علم اللغة الحديث ومدارسه ، بل تصادف في أسلوبه ومعالجته للظواهر اللغوية رؤية تكاد تتسم بالشمول والتوحد ، على الرغم من أن المسهمين فيه ليسوا سواءً في أسلوب الدرس اللغوي، ولا سواء في أصالة التفكير النحوي .

والحق أن هؤلاء المسهمين ينتظمون في اتجاهين : يمثل الاول منهما عبد الله بن أبي اسحاق الحضرمي (١١٧ هـ) ، وعيسى بن عمر (١٤٩هـ) والخليل بن أحمد (١٧٠ هـ) وسيبويه (١٨٠ هـ) . ويمثل الثاني أبو عمرو بن العلاء (١٥٤ هـ) ويونس بن حبيب (١٨٢ هـ) . أما الاتجاه الاول فكان ينحو نحواً قياسياً عقلياً في تعليل ظواهر اللغة ، وينحو الثاني نحواً هو الى الوصفية أقرب منه الى التعليل والتأويل .

ولم يطلعنا « الكتاب » على آراء هؤلاء جميعاً في الضرورة الشعرية، بل اكتفى بنقل شيء يسير من كلام يونس ، ثم فرغ للإفاضة بنقل رأي الخليل بن أحمد خاصة ، وهو الذي حدد نظرية الضرورة في تاريخ

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

النحو العربي ، أما سيبويه فيبدو لنا أنه لم يضف شيئاً الى مفهوم الضرورة بل اكتفى بما انتهى اليه فهم شيخه ، فمضى في « الكتاب » يطبق هذه النظرية بذكاء نادر ، وبصر نافذ في تراكيب اللغة ، مثله كمثل عالم الكيمياء الذي لم يصنع قانون المادة ، ولكنه يملك من القدرة ما يكفيه لممارسته في المخبـر .

وترتبط نظرية الخليل في الضرورة برؤيته العامة للغة ، ومستوياتها التعبيرية ، ولا يستطيع الباحث أن ينفذ الى جوهرها الا اذا أحاط بهذه الرؤية التي يجسدها سيبويه في كثير من صفحات الكتاب.

١ ـ الضرورة قبل الخليل

ومن المجزوم به أن نظرية الضرورة الشعرية لم تظهر الا بعد أنقطع الاستقراء اللغوي شوطاً بعيداً ، إذ لايمكن أن تتضح للنحاة الا بعد أن تتجمع لديهم الاصول الاولى ، وتستقر في أذهانهـم القوانين اللغوية ، ويغلب على الظن أنها ترجع الى المرحلة النحوية التي خلفت تلامذة أبـي الأسود الدؤلي ، وهي التي يمثلها نحاة « الكتاب » وأعني بهم الحضرمي، وعيسى ، وأبا عمرو ، غير أنها لم تصر نظرية واضحة المعالم الا في نتـاج الخليل وتلميذه سيبويه.

ففي مرحلة الحضرمي وصاحبيه ظهر الفرق بين لغتي الشعر والنثر، وقد اتضح لهؤلاء أن اللغة الاولى قد تخرج على الاصول العامة ، بل ان أبا عمرو من دون صاحبيه كان يجمع اليها بعض اللغات التي قرىء بها القـرآن .

وعلى الرغم من أن الحضرمي كان يلتمس الحيلة أحياناً في توجيه

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

بعض الظواهر الشعرية لانجد له ــ فيما رواه الرواة ــ نظرية واضحة في الضرورة ،فكل ما وصل الينا من آرائه أنه كان ينسب الى الخطأ تلك الظواهر المخالفة للأصول .

أما يونس بن حبيب فقد ظل مفهوم الضرورة عنده على ما كانعليه قبل الخليل . إذ لم يكن يلتمس وجهاً ما كما كان يفعل معاصره الخليل ، بل كان يكتفي بمثل هذا القول : « أنّه نوّن مضطراً[١] » .

٢ ــ الضرورة عند الخليل وسيبويه

ظل إذن مفهوم الضرورة غير واضح حتى جاء الخليل ووضع له أسساً نظرية وعاها تلميذه سيبويه وعياً عميقاً ، فأحسن نقلها عنه ، وأجاد ممارستها في تفسير الظواهر التي تخرج على الاصول العامة .

وفي هذه المرحلة كان التفاعل الثقافي في الحياة العلمية قد امتد الى النحو ، وكان علم الفقه خاصة يسود سائر العلوم ، وقد انتقل منه الى الدراسات النحوية بعض أساليبه وطرائقه ، كالقياس ، والإجماع ، والعلة، وما يمكن أن نسميه « نظرية الأصل » ، فقد كان الفقهاء ــ كأبي حنيفة وأصحابه ــ يبحثون في « الرُّخَص » ، وما يباح أحياناً من تجاوز أصل كلي ، أو قاعدة فقهية ، اذا دعت الى ذلك ضرورة ، كما كانوا يبحثون في ماهية الاشياء والافعال من حيث تحليلها وتحريمها ، والاصل في التحليل والتحريم[٢] ، كما بحثوا في حدود الضرورة فرأوا أن من شروطها « ألا يخالف المضطر مبادىء الشريعة الاسلامية ..[٣] » .

---

(١) كتاب سيبويه (طبعة هارون) ٣٠٨/٢ ــ ٣٠٩

(٢) نظرية الضرورة الشرعية . للدكتور وهبة الزحيلي ص ٢٨ دمشق ١٣٨٩/١٩٦٩

(٣) نفسه : ٦٧

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وقد كان الخليل يتابع الحركة الثقافية في شُعَبها الثلاث ، الفقهية، والكلامية ، واللغوية ؛ وساعده على بناء نظرية الضرورة أن الاستقراء اللغوي لزمنه قد حدد الضوابط العامة ، ووضح النُّظُم الكلية ،وأشار الى المستويات اللغوية المتعددة إشارات لا تفتقر الى المزيد ؛ ومن أجل ذلك كله صار مفهوم الضرورة عنده جزءاً من وعيه لبناء اللغة العام ، وإحاطته بدقائق التعبير ، وصارت الضرورة نفسها مقرونة الى مستويات أخرى كالرديء ، والقبيح ، والضعيف ، وأشباه ذلك.

١ ـ الضرورة والرؤية اللغوية

وأول ما نلاحظه في دراسة الخليل وتلميذه للضرورة أنها ترتبط ارتباطا محكما برؤيتهما للغة ، بحيث لايمكن فصمها عنها ؛ فهما يريان اللغة بناءً بالَغَ مهندسه في إحكام صنعته ، أو هي عندهما مجموعة من الاساليب تحكمها قوانين دقيقة ليست مستقلة تمام الاستقلال ، ولكنها متفاعلة بحيث تتقارض الأحكام طوراً ، وينوب بعضها عن بعض أحياناً .

وقد نشأ من هذا التفاعل بين أنظمة الاساليب ما ظاهره خروج على النظام العام ، ولذلك كان من اللازم أن تدرس الظواهر الشاذة هذه، ليعودَ الى بناء اللغة وحدته المتكاملة ، ولتبرز فيه ظاهرة التفاعل بين وَحَداته التي تكوِّنه .

ويبرز لنا في كتاب سيبويه ضربان من الظواهر اللغوية التي تخرج على النظام العام :

الاول صدر عن الجماعة اللغوية كلها ، وصار جزءاً من نظام اللغة وأقيستها ، وبات عادة كلامية تخضع للعُرف والشيوع ؛ من هذا النوع

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الاسم الممنوع من الصرف ، والاسم المبني ، وإعراب الفعل المضارع ، وعمل (ما) عمل (ليس) ، وحذف الواو والنون من (يكون) في حال الجزم ، واستعمال بعض الكلمات استعمالاً خاصاً في تراكيب محدودة لاتعدوها ، مثل : لدنْ غُدْوةً ، وعسى الغويرُ أبؤساً . فهذه الظواهر خرجت على الأصول ، لأن« الاصل » في الاسماء أن تنوَّن وأن تدخلها حركة الجر ، ولهذا صار الممنوع من التنوين مخالفاً للاصل . كما أن الاسماء معربة" في أصل اللغة العام ، وبهذا يكون ما بني منها على سمت آخر ، وكذلك « الأصل » في الأفعال أن تبنى ، ولذلك كان إعراب المضارع خروجاً عليه . وهكذا نرى في تحليل هذه الظواهر مُخالَفةً صريحة للأصول .

أما النوع الثاني فلم يصدر عن الجماعة اللغوية كلها ، ولم يصرعادة كلامية خاضعة للعرف ، بل صدر عن انسان واحد ، في حالة واحدة ، ألجأته اليه رغبته في الإفصاح المباشر عما في ذهنه ، وحالت قيود الشعر دون أن يأتي التعبير مستوياً مراعياً النظام الاساسي العام ، وهذا هو الذي سمي بعد سيبويه بالضرورة الشعرية .

والذي يدل على ارتباط النوعين في ذهن الخليل وسيبويه أنهما يفسران الظواهر فيهما تفسيراً واحداً يقوم على ملاحظة العلاقة الوطيدة بين اللغة والفكر ، أو بين الكلام والمتكلم ، ففي ذهن الانسان تُخْتَزن جميع النظم اللغوية الخاصة ، وتجتمع كل التراكيب التعبيرية ، وهو على هديها يركب ملايين العبارات السليمة ، ولكنه في بعض الاحيان يقيم نظاماً مُقام نظام ، ويجعل صيغة في موضع صيغة ، مستهدياً بحسه اللغوي العفوي ، فإن رضيته الجماعة واستخدمته صار جزءاً من اللغة ، ودخل في

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أساليبها ونظمها ، وإن رفضته ظل حالاً فردية ، أو ظاهرة خارجة عن النظم السائدة ، والامر في النوعين كليهما واحد ، لأن المتكلم يصدر فيهما عن تفاعل المخزون اللغوي في نفسه ، أو ـ إن شئت ـ يصدر عن « قياس » عفوي يقوده اليه تفاعل النظم اللغوية في ذهنه ، وتداخل بعضها في بعض أحياناً .

وهذا « القياس » يختلف عن قياس الفقهاء والمناطقة ، لأنه قياس المتكلم ، وان شئت هو ما يملكه الانسان من قدرة على تركيب ملايين الجمل بحسب النظام اللغوي الذي اكتسبه من البيئة اللغوية.

وبهذا تكون ظاهرة الممنوع من الصرف قائمة على « القياس » أو على تفاعل النظم وتناوبها ، فالاسم الممنوع من الصرف مقيس على الفعل، فكما أن الفعل لا ينون ولا يجر كذلك الاسم الممنوع من الصرف ، وهذا القياس لايقوم في نفس المتكلم اعتباطاً بل يقود اليه تشابه الصيغ ، أو تشابه الظواهر ، وهذا واضح فيما قاله سيبويه ، وما نقله عن الخليل : « اعلم أن (أَفْعَل) اذا كان صفة لم ينصرف في معرفة ولا نكرة ، وذلك لأنها أشبهت الافعال ، نحو : أذهبُ ، وأعلمُ ، ، قلت : فما باله لا ينصرف اذا كان صفة وهو نكرة ؟ فقال : لأن الصفات أقرب الى الأفعال ،فاستثقلوا التنوين فيه كما استثقلوه في الافعال ، وأرادوا أن يكون في الاستثقال كالفعل اذ كان مثله في البناء والزيادة وضارعه[1] ».

أما الأسماء المبنية فقد خالفت الاصول العامة ، لأن الأصل في الاسم أن يكون معرباً ، ولكن هذه الاسماء ضارعت الحروف[2] في بنائها ، أو

(١) كتاب سيبويه : ١٩٣/٣

(٢) نفسه : ٢٨٥/٣ وما بعدها . وانظر : ١٥/١

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

في دلالتها الوظيفية ، والفعل المضارع أعرب لأنه في صيغته يشبه اسم الفاعل[١] (يُخْرِج ـ مُخرِج) ، ويشبهه أيضاً في تأثره باللواصق وفي مواقعه من التركيب .

على مثل هذا الأساس تُفَسَّر ظواهر اللغة التي تخرج على « الأصول » العامة التي لاتوافق القياس ، أو النظام العام للعربية ، وكثيراً ما نجد في الكتاب مثل هذا المبدأ : « ومن كلامهم أن يجعلوا الشيء في موضعٍ على غير حاله في سائر الكلام[٢] » أو : « وقد يشبهون الشيء بالشيء وليس مثله في جميع أحواله[٣] » ومثل هذا المبدأ يأتي أحياناً في كلام الخليل ، ويأتي طوراً في كلام سيبويه ، وذلك يجزم بأن الاصول التي وَجَّهت سيبويه في الكتاب كله هي مما اهتدى اليه الخليل دون غيره .

ب ـ مفهوم الضرورة في الكتاب :

على الرغم من كثرة تأويل الخليل وسيبويه للظواهر اللغوية التي خرجت في الشعر على الأصول العامة، لا نرى واحداً منهما استخدم مصطلح « ضرورة » ، ولكنهما كانا يستخدمان ألفاظاً من الجذر نفسه، كالاضطرار، أو مضطر ، أو اضطر[٤] ، أو يكتفيان بالقول : يحتمل الشعر ، أو يجوز في الشعر[٥] .

وكثيراً ما نجد عندهما مُقابَلة صريحة بين لغة الشعر ولغة الكلام ،

---

(١) نفسه : ١٣/١
(٢) نفسه : ١٥/١
(٣) نفسه : ١٨٢/١ ، وانظر : ٥١٥/٣
(٤) أنظر : ٣٠٧/١ ، ٤٠٧ ، ١٦٤/٢ ، ٢٠٦ ، ٢٤٢ ، ٢٦٩ ، ٣٠٩ ، ٣٨٢
(٥) أنظر : ٣٦/١ ، ٤٨ ، ٨٥ ، ٩٩ ، ١٨٠ ، ١٦٦/٢ ، ٢٣٠ ، ٣٠٥

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ومصطلح « الكلام » عندهما يعني ما يقابل « الشعر » ، وهما يغتفران في الشعر ما لايغتفرانه في الكلام ، وهذا واضح في مثل قول سيبويه : « اعلم أنه يجوز في الشعر ما لايجوز في الكلام[١] » وفي قوله : « وهذا قليل في الكلام ، كثير في الشعر[٢] .

وتقوم النظرية عند الرجلين على تجاذب الأنظمة أو تفاعلها في أذهان المتكلمين ، وهذا يعني أنها لاتخرج على الأصول الاساسية للغة ، مثلها مثل الضرورة الشرعية التي لايسكن أن تخرج على مبادىء الدين الأولى .

أما أساس هذه النظرية فقد صاغه سيبويه بقوله : « وليس شيء يضطرون اليه إلا وهم يحاولون به وجهاً[٣] » .

وقد تفرع هذا المبدأ في تطبيقاته ثلاثة فروع :

١ ــ الاول : الربط بين لغة الضرورة ولغة أخرى قياسية تشبهها في الشكل أو في المعنى ، وهو ما يعبر عنه الخليل وسيبويه بـ « الشَّبَه » .

٢ ــ والثاني: العودة الى النظام العام للغة،وهو مايسميانه«الاصل» .

٣ــ والثالث : التماس وجه قياسي يسوّغان به الظاهرة .

وسنتحدث عن كل من هذه الفروع حديثا موضحا .

١ ـ التشابه بين ظاهرتين :

والخليل بن أحمد هو صاحب هذه النظرية ، فهو ، يرى أن الشاعر

(١) نفسه : ٢٦/١

(٢) نفسه : ١٢٥/٢ . وانظر : ٢٥٤/٢ ، ٥٧٢/٣

(٣) نفسه : ٣١/١

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

حين يضطر الى تركيبٍ ما يسوقه الاستغراق النفسي أحيانا الى أن ينيب بُنْيَةً مناب بُنْيَةٍ ، وهذه العملية وان تستفي جوّ من الاستغراق تقوم على تداعي الصيغ وتفاعلها ــ كما قلنا ــ وتقوم على احدى ركائز ثلاث : التركيب ، والصيغة ، والمعنى .

ففي توجيهه لجزم الفعل المضارع بـ « إذا » يقول : « وقد جازوا بها في الشعر مضطرين ، شبهوها بـ « إنْ » ، حيث رأوها لما يستقبل ، وأنها لا بد لها من جواب[١] »

ومن هذا القبيل توجيهه حذف الفاء أحيانا من جواب الشرط ، قال سيبويه : « وسألته عن قوله : إن تأتني أنا كريم . فقال : لا يكون هذا إلا أن يضطر شاعر ، من قبل أن (أنا كريم) يكون كلاما مبتدأ ، والفاء و «إذا» لايكونان الاّ معلقين بما قبلهما ، فكرهوا أن يكون هذا جواباً حيث لم يشبه الفاء ، وقد قاله الشاعر مضطراً ، يشبهه بما يُتَكَلَّم به من الفعل[٢] »

في النصين كليهما نجد الخليل يبني توجيهه للظاهرة على العلاقة بين اللغة والفكر ، فللغة تراكيب خاصة بكل معنى،كتراكيب الشرط ، وتراكيب الاستفهام ، وتراكيب التوكيد ، وهذه التراكيب تقوم في النفس والوعي ، وهي على استقلالها يختلط بعضها ببعض أحياناً ، أو تتناوب ، ولكن في حال نفسية خاصة هي حال الاستغراق . ومن هنا اختلط في ذهن الشاعر تركيب « إذا » بتركيب « إنْ » ، وكلاهما للشرط ، واختلط التركيب الذي

---

(١) نفسه ٣/٦١

(٢) نفسه : ٣/٦٤ ، وانظر أيضا : ٢/٣٧٠

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

يحتاج الى فاء في الجواب بالتركيب الذي لايحتاج اليها ، كما في مثل: إن تعمل تربح • والخليل حين يقول عن الشاعر : شبه كذا بكذا • يريد هذا اللون من التناوب في التركيب الذي تسرب الى الشعر في حال الاستغراق•

هذه هي الركيزة الاولى •

أما ركيزة الصيغة فتظهر لنا جلية فيما رواه عنه تلميذه سيبويه بقوله: « وسألت الخليل عن : ثلاثة كلاب • فقال : يجوز في الشعر • شبهوه بـ « ثلاثة قرود » ، ونحوها[١] •

وجه المخالفة للاصل العام هنا أن « ثلاثة » عدد قليل ، و (كلاب) من جموع الكثرة ، وكان يجب أن يقال : ثلاثة أكْلُب • كما يقال : ثلاثة أسطر • ولكن يجوز في الشعر أن يُخالَف هذا الاصل من قبيل تفاعل الصيغ ، ففي الذهن من اللغة جموعُ كثرةٍ ليس لها ما يقابلها من جموع القلة ، فـ (قرد) مثلا ، ليس له الا جمع كثرة ، هو (قرود) ، ولا يقال: أَقْرُد • ففي حالات الاستغراق تنوب الصيغة (فُعول) أو (فِعال) مناب (أَفْعُل) ، فيقال : ثلاثة كلاب ، وثلاثة سطور •

ومما اعتمد فيه ركيزة المعنى قوله : « وقد جاء في الشعر : قطي ، وقدي ، فأما الكلام فلا بد فيه من النون ، وقد اضطر الشاعر فقال : قدي• شبهه بـ (حسبي) ، لأن المعنى واحد[٢] » •

ولاشك أن اعتماد الخليل للركيزتين الاوليين أكثر توفيقا من اعتماده ركيزةَ المعنى ، لأن تداخل الكلمات والعبارات المتشابهة في الشكل أقرب

(١) نفسه : ٦٢٤/٣

(٢) نفسه : ٣٧١/٢

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الى الواقع من تداخل الكلمات المتفقة في المعنى ، المختلفة في الصيغة واللفظ .

هذه هي نظرية الشبه عند الخليل ؛ ولما جاء تلميذه سيبويه أخذ بهذه الركائز الثلاث ، ولكنه لم يستطع أن يحافظ على المستوى الذي كان عليه الشيخ ، بل انحدر به الى ضرب من التمحل أحيانا بحيث يستحيل «القياس» العفوي الذي يجري في نفس المتكلم الى قياسٍ واعٍ هو الى قياس العلماء أقرب منه الى قياس المتكلمين ، حتى ليخيل اليك أن المتكلم هو سيبويه نفسه .

ولكنه الى ذلك وفق في تفسير بعض الظواهر ، فاعتمد التركيب ، والصيغة ، والمعنى ، وقد يجمع أحيانا بين المعنى والتركيب في تفسير واحد كما في تحليله لظاهرة أفعال الرجاء والمقاربة ، يقول : « واعلم أن من العرب من يقول : عسى يفعل ، يشبهها بـ « كاد يفعل » ويقول : « وقد جاء في الشعر : كاد أن يفعل . شبهوه بـ : عسى » ويقول : « وقد يجوز في الشعر أيضاً : لعلي أن أفعل . بمنزلة : عسيتُ أن أفعل[1] » .

ففي هذه الآراء نجد منزعاً خليلياً في تفسير الظواهر ، اذ يتضح لنا جانب التفاعل بين الاساليب المتشابهة في التركيب والدلالة ، فالمتكلم يستعمل آناً (عسى) في موضع (كاد) ، ويجعل طوراً أسلوب (كاد) كأسلوب (عسى) ، ولاشك أن هذا التفاعل مبني على توافق (النُظُم) اللغوية في ذهنه من حيث الشكل والمعنى .

ونراه في موضع آخر يفسر الضرورة بركيزة الصيغة ، قال :« وقد

---

(١) نفسه : ٣/١٥٨ ـ ١٦٠

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

اضطر فقال في « الرجال » وهو الفرزدق :

واذا الرجـــال رأوا يزيد رأيتهم خُضُعَ القلوب نواكس الأبصار

لأنك تقول : هي الرجال ، كما تقول : هي الجمال ، فشبه بالجمال[١] ».

غير أن سيبويه أسرف في التماس الشبه ونسبته الى المتكلم ، حتى بدا التمحل واضحا في بعض تفسيره وتوجيهه للضرورة ، ففي حديثه عن لام الامر يسوق هذا الكلام : « واعلم أن هذه اللام قد يجوز حذفها في الشعر ، وتعمل مضمرة ، كأنهم شبهوها بـ (أنْ) اذا أعملوها مضمرة » ثم يقول « والجزم في الافعال نظير الجر في الاســماء ، فليس للاسم في الجزم نصيب ، وليس للفعل في الجر نصيب ، فمن ثم لم يضمروا الجازم كما لم يضمروا الجار ، وقد أضمره الشاعر شبهه بإضمارهم (رُبَّ) وواو القسم ، في كلام بعضهم[٢] » .

فالظاهرة هنا ــ وهي حذف لام الامر وبقاء عملها ــ تشبَّه مــرة بـ (أن) المضمرة العاملة ، ومرة أخرى بـ (رب) وواو القسم ، من دون أن يكون هناك تركيب واحد ، أو صيغة واحدة ، بحيث تقود الى اختلاط الظاهرتين بعضهما ببعض ، وبهذا يستحيل الامر الى قياسٍ مجرد يمكن أن يفكر فيه العالم ، ولا يمكن أن يصدر عن المتكلم ، فهــذا التناظر بين الجر في الاسم ، والجزم في الفعل ، يقود الى تناظر آخر بين جواز حذف الجازم وجواز حذف الجار ، ولا يمكن أن يكون هذا كله مما يحصلُ عفوا في نفس المتكلم[٣] .

---

(١) نفسه : ٦٣٣/٣

(٢) نفسه : ٨/٣ ــ ٩

(٣) انظر مثل هذا : ٢٦/١ ــ ٢٧

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الحق أن سيبويه حاول أن يحاكي الخليل في تطبيق نظرية الشبه ، فلم يَسْمُ الى منزلته ، ولم يفلح في بعض الاحيان ، بل نراه يتخذ من تفاوت الشبه معياراً لمستوى الضرورة ، فكلما كان الشبه أكبر كانت الضرورة ذات مستوى عال ، وهذا واضح في حديثه عن توكيد الفعل المضارع بنون التوكيد ، يقول : « وقد تدخل النون بغير (ما) في الجزاء ، وذلك قليل في الشعر ، شبهوه بالنهي حين كان مجزوماً غير واجب » . ثم أورد شاهدا أُكّد فيه الفعل بعد (لم) ، وهو :

يحسبه الجاهل ما لم يعلما شيخاً على كرسيه معمما

ثم قال : « شبهه بالجزاء حيث كان مجزوما ، وكان غير واجب ،وهذا لايجوز الا في اضطرار ، وهي في الجزاء أقوى[1] » .

في هذا القول ملاحظتان : الاولى أنه ليس بين الجزاء والنهي من شبه واضح الا في جزم الفعل ، وبهذا تضعف فكرة التشبيه ، لأنها لاتقوم على تداخل التركيب ، والثانية أنه يشير الى مراتب الضرورة بحسب قربها من الاصل ، وهو المشبه به ، وذلك على الشكل الآتي :

١ ــ النهي هو الاصل في التوكيد

↑

٢ ــ يُشبَّه به الجزاء فيجوز التوكيد

↑

٣ ــ يشبه المضارع بعد (لم) بالجزاء فيجوز التوكيد

ولذلك تراه يقول : « وهي في الجزاء أقوى . »

---

(١) نفسه : ٣/٥١٥ ــ ٥١٦

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ولا شك أن الفرق بين صنيع الخليل وصنيع سيبويه في مقولة الشبه قد بان واتضح ، فالخليل يقيمها على العلاقة الوثيقة بين اللغة والفكر ، لا على مجرد التناظر بين المتباعدين ، وتفسرها عنده العلاقة بين النُّظُم اللغوية المتشابهة التي تتداخل وقد تتناوب في حالات الاستغراق ، وقد وفق تلميذه سيبويه في بعض ممارساته الذكية لهذه النظرية ، وجانبه التوفيق في مواضع أخرى .

وهاهنا يجب أن نذكّر بما سبق أن فصلناه من أمر الظواهر التي خرجت على نظام اللغة العام ، كالممنوع من الصرف ، وأشباهه ، فالخليل وسيبويه يقرنان الضرورة الشعرية الى هذه الظواهر ، لانهما يفسرانها جميعا تفسيرا واحدا ، يقوم على الشبه الذي يحس به المتكلم بين ظاهرتين ، أو بين أسلوبين من التعبير ، فكما أن الممنوع من الصرف فُسِّر بشبه الفعل ، فُسِّرت الضرورة بالمقولة نفسها ، وعلى هذه الصورة تتفاعل الظواهر ، وتتقارض النظم والاساليب .

إلا أن الفرق بين الضرورة والظواهر الاخرى هو أن الاولى ظلّت حالاً فردية لم تشأ لها الجماعة أن تنضم الى نظام اللغة ، أو تُحْدِث لنفسها نظاما خاصا ضمن النظام العام ، على حين صار للظواهر الاخرى أنظمة يخضع لها المتكلم ، بل صارت وحدة ضمن وحدات كثيرة .

٢ ـ العودة الى الاصل :

وهذا وجه آخر من توجيه الضرورة في ذهن الخليل ، وذهن تلميذه سيبويه ،وهو في جوهره لا يكاد يختلف عن الوجه السابق ، فهو يصدر مثله عن العلاقة بين اللغة والفكر ، أو عن احساس الشاعر بحقائق الظواهر

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

اللغوية وبواطنها ، فهو يتصرف معتمدا عليها اعتمادا نظريا ، إنهـا كالنظم اللغوية العامة . فكما يرفع الفاعل وينصب المفعول لإحساسه بهذه النظم، يعود الى الاصل بهديها أيضا .

والذي اهتدى الى هذا الوجه هو الخليل ، وآمن به تلميذه وطبقه في مواضع كثيرة من كتابه ، فمن كلام الخليل فيه ما نقله سيبويه في قوله: « ويقول يونس للمرأة تسمى بـ « قاضٍ » : مررتُ بقاضيَ قبلُ ، ومررت بأعيسيَ منك . فقال الخليل : لو قالوا هذا لكانوا خلقاء أن يلزموها الجر والرفع ، كما قالوا حين اضطروا في الشعر فأجرَوْه على الاصل ،قال الشاعر:

أبيت على معاريَ واضحاتٍ بهنَّ مُلوَّبٌ كدم العِباط

وقال الفرزدق :

فلو كان عبد الله مولى هجوتُه ولكن عبد الله مولـى مواليا

فلما اضطروا الى ذلك في موضع لابد لهم فيه من الحركة أخرجوه على الاصل[1] » .

وقد استعان سيبويه بهذا الاصل غير مرة ، وساق بعض عباراته فيه على صورة قانون لغوي ، كقوله : « وقد يبلغون بالمعتل الاصل ، فيقولون: رادد ، في رادّ ، وضننوا ، في ضنوا ، ومررت بجواريَ قبلُ[2] » . وعاد الى مثل هذا القول في موضع آخر ، فقال : « واعلم أن الشعراء اذا اضطروا الى ما يجتمع أهل الحجاز وغيرهم على إدغامه ، أجروْه على الاصل ، قال الشاعر ، وهو قعنب بن أم صاحب :

---

(١) نفسه : ٣/٣١٢ ـ ٣١٣ . وانظر : ٣/٣١٥

(٢) نفسه ١/٢٩

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

مهلاً أعاذلَ قد جربتِ من خلقي أني أجـود لأقوامٍ وإن ضننوا

وقال :

تشكو الوجى من أظلَلٍ وأظللِ

وهذا في الشعر كثير[١] » .

وقد ساد هذا التوجيه العصور المتأخرة ، وانقسمت الضرائربموجبه الى حسنة وقبيحة ، فكلما كان الاصل الذي رجع اليه الشاعر واضحاًكانت الضرورة حسنة ، واذا ابتعدت عنه كانت قبيحة .

٣ ـ التماس وجه :

ويأتي هذا التوجيه ليكمل الاسس التي تنهض عليها نظرية الضرورة وهو أيضا لايختلف عن الاساسين السابقين من حيث صدوره عن العلاقة بين اللغة والفكر ؛ انه ليس شبها بين ظاهرتين ، ولا عودة الى أصل متروك، ولكنه ملاحظة دقيقة تصدر حينا عن تداخل العادات الكلامية أو سيطرتها على فكر المتكلم ، وتصدر حينا آخر عن خصائص المفردات ووظائفها في التركيب ، وقد تصدر عن القضايا الصوتية ونيابة بعضها عن بعض .

ولنضرب مثالا على تداخل العادات الكلامية وتقارضها :

يقول سيبويه : « ومن العرب من يثقل الكلمة اذا وقف عليها ، ولا يثقلها في الوصل ، فاذا كان في الشعر فهم يجرونه في الوصل على حاله في الوقف ، نحو : سبسبّاً ، وكلكلاً ، لأنهم قد يثقلونه في الوقف[٢] » .

(١) نفسه ٥٣٥/٣ ، وانظر : ٣١٥/٣ ، ٤٥٣ ، ٥٠٥

(٢) نفسه : ٢٩/١ ، وانظر : ٣٠٧/١

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

صحيح أن العملية هنا تقوم على التشبيه ، غير أنها تختلف عما سبق أن رأيناه ، فالمتكلم هنا لاتتفاعل في ذهنه التراكيب أو الصيغ،بل تتفاعل العادات المتبعة في الوقف والوصل ، فتثقيل الكلمة في الوقف عادة كلامية، يحتاج اليها الشاعر في حال الاضطرار ، ثم انها لاتخضع للحظات الاستغراق كما رأينا من قبل ، بل انها تجري في جو طبيعي واعٍ .

ونجد اعتماده خصائصَ المفردات في العربية في حديثه عن امتناع الجزم بالشرط بعد الادوات : إذ ، وما ، وأمّا . يقول : « وانما كرهوا الجزاء هاهنا لانه ليس من مواضعه ، ألا ترى أنه لا يَحْسُنُ أن تقول : أتذكر إذ إن تأتنا نأتِك . كما لم يجز أن تقول : إنّ إن تأتنا نأتِك . فلما ضارع هذا الباب باب « إنّ » و «كان» كرهوا الجزاء فيه . وقد يجوز في الشعر أن يجازى بعد هذه الحروف ، فتقول : أتذكر إذ من يأتنا نأته. فانما أجازه لأنّ « إذ » وهذه الحروف لا تغيّر ما دخلت عليه عن حاله قبل أن تجيء بها ، فقالوا : ندخلها على : من يأتنا نأته . ولا تغير الكلام ، كأنا قلنا : من يأتنا نأته . كما أنا اذا قلنا : إذ عبدُ الله منطلقٌ . فكأنّا قلنا : عبد الله منطلق . لان « إذ » لم تحدِث شيئا لم يكن قبل أن تذكرها[1] » .

وينبغي هنا ألا يذهب بنا بعيدا أسلوب سيبويه في التعليل ، فهو ـ كما ترى ـ ينسب المحاكمة الى المتكلمين ، ويظهر من كلامه أن احساسهم بخصائص المفردات واستخدامهم لها يجري في جو من الوعي واليقظة ، والحق أن هذا أسلوبه وأسلوب من تقيّل ظلاله من الخالفين، ولكنه لا يعني قطعا ما يدل عليه ظاهر العبارة ، بل يريد أن يبين أن خصائص

(١) نفسه : ٣/٧٥

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

المفردات تقوم في نفس المتكلم ، وأن احساسه بها احساس" فطري عفوي، فهو يستخدمها بوحي من هذا الاحساس ، ويضعها حيث يمكن أن توضع.

وننتقل الآن الى توجيه الضرورة بملاحظة القضايا الصوتية ، وسنرى فيها ضربين من التعليل ، ضربا تقبله النفس ، وتطمئن اليه ؛ لأنه واقعي طبيعي ، وضرباً آخر تجد فيه من التمحل ما ينأى به عن واقع اللغة وقوانينها الصوتية .

نجد الضرب الاول في هذا النص ، يقول : « واعلم أن الشعراء اذا اضطروا حذفوا الهاء في الوقف ، وذلك لأنهم يجعلون المدة التي تلحق القوافي بدلا منها ، وقال الشاعر ابن الخرع :

كادت فَزارَةُ تشقى بنا فأولى فزارة أولى فزارا[1] »

فألف المد هنا تحل صوتياً محل الهاء في « فزاره » لانهما صوت من طبيعة واحدة ، غير أن سيبويه يسوق كلاما في موضع آخر لايمكن أن يكون له وجه صوتي مقبول ، كقوله : « وأما قوله ، وهو رجل من بني يشكر :

لها أشاريرُ من لحمٍ تُتَمِّرُه من الثعالي ووخز من أرانيها

فزعم أن الشاعر لما اضطر الى الياء أبدلها مكان الباء ، كما يبدلها مكان الهمزة[2] .»

فالثعالي ، هنا يراد بها الثعالب ، والأراني ، الارانب ، ولكن الشاعر اضطر فاستغنى عن الباء في كل منهما ، وأحل محلها الياء . غير أن البعد

(١) نفسه : ٢/٢٤٢ ـ ٢٤٣

(٢) نفسه : ٢/٢٧٢ ـ ٢٧٣

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الصوتي بين الياء والباء يرفض ذلك ، والاقرب الى واقع اللغة أن الشاعر اضطرّ فحذف الباء في كل من الكلمتين، ثم مد حركة الكسر التي تسبقها ليقيم عوج البيت ، وليستوي له الايقاع ، ولم يبدل حرفا بحرف .

* * *

تلك هي الاسس الثلاثة التي تقوم عليها نظرية الضرورة في كتاب سيبويه ، وفق فيها الرجلان توفيقا حسنا ، وصدرا فيها عن وعي كامل لنظم العربية وادراك ذكي للصلة بين اللغة والفكر ، وان كان لسيبويه خاصة توجيهات يتوقف عندها النظر أحيانا .

الضرورة ومعيار الصواب

مر بنا من قبل أن الضرورة الشعرية في نظرية الخليل وسيبويه تشبه الضرورة الشرعية من حيث مراعاتها للمبادىء الاساسية للغة ، فهي وان جانبت النظام العام تبقى في حدود المبادىء الاولى لا تتجاوزها ولا تخرج عليها ، بل حسبها أن تستبدل نظاماً في التركيب أو في الصيغة بنظام آخر يجاري القياس العام ، أما الخطأ فما خرج على تلك المبادىء الاساسية خروجا تاما ، ولم يسلك مسلك وجه من وجوه القياس .

وقد أعطانا سيبويه مثالا دقيقاً عن الفرق بين الضرورة والخطأ ، فالمعروف أن الكاف الجارة لا تجر الضمائر في لغة الكلام ، ولا في لغة الشعر الفصيحة، إذ لا يُقال : كَكَ ، ولا، كَهُ ، ولا، كي ، بل يقال: مثلك، ومثله ، ومثلي . ولكن اذا اضطر شاعر جاز له ذلك ، لانه حينئذ يرجع الى أصل متروك ، هو أن حروف الجر جميعا تجر الضمائر . ولكن ينبغي للشاعر في هذه الحال أن يكسر الكاف ، وان كانت أبدا مفتوحة ، وعلة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ذلك أن كسر الحرف قبل ياء المتكلم من مبادىء العربية الاولى ، فاذا فتح الكاف قبل ياء المتكلم يخرج من اطار الضرورة الى اطار الخطأ . يقول سيبويه : « ولو اضطر شاعر فأضاف الكاف الى نفسه ، قال ما أنت كِي . و (كَيْ) خطأ من قبل أنه ليس في العربية حرف يفتح قبل ياء المتكلم[١] » .

فالضرورة اذن تبقى محصورة في إمكانيات اللغة ، واستعمالاتها ، وعاداتها الكلامية .

وعلى الرغم من هذه التفرقة الواعية بين الضرورة والخطأ في نص سيبويه نجده وشيخه لا ينظران الى الضرورة الاّ نظرة هي الى الإزراء والاستهجان أقرب ، فهما وان عللاها يجدانها مستوى من التعبير لايرقى الى مرتبة المقبول في الكلام .

بيد أنها ليست سواء عندهما ، بل تتفاوت بتفاوت قربها من اللغة السوية وبعدها عنها ، ولعلنا لانبعد عن الصواب اذا نحن جعلناها في قسمين كبيرين : الاول : أسلوب في التعبير لا يجوز في الكلام ، والآخر الى مرتبة المقبول في الكلام .

١ ـ القسم الاول :

والقسم الاول كثير جدا ، افتتح به سيبويه حديثه عن الضرورة في بداية الكتاب ، فقال : « اعلم أنه يجوز في الشعر ما لا يجوز في الكلام . » وعدّ منه صرف ما لا ينصرف ، وحذف ما لا يحذف ، ومدّ ما لا يمد ، وبلوغ الاصل في المدغم والمعتل ، وتثقيل الكلام في الوصل كما يثقل أحيانا في الوقف[٢] ...

(١) نفسه : ٣٨٥/٢

(٢) نفسه : ٢٦/١ ومابعدها

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وقد تنوع التعبير الذي استخدمه الخليل وسيبويه في هذا القسم، فحينا يسوقان عبارة صريحة ، مثل : لايجوز في الكلام ، أو لايستعمل في الكلام ، الخ .. وحينا آخر يستخدمان عبارة أقل صراحة كنعتهما لغة الضرورة بالرداءة ، أو القبح .

فمن الظواهر الكثيرة التي وقعت في الشعر ، ونعتت في الكتاب بأنها لاتجوز في الكلام ما أورده سيبويه بقوله : « وليس بمستنكر في كلامهم أن يكون اللفظ واحداً والمعنى جميع ، حتى قال بعضهم في الشعر من ذلك ما لايستعمل في الكلام.[١] » وهذا في الكتاب كثير[٢] .

وقد ينعتان الظاهرة بالخطأ ، كما فعل الخليل في حديثه عن جزم الفعل المضارع بـ « إذا » ، قال : « فهذا اضطرار ، وهو في الكلام خطأ.[٣] »

أما مانعته سيبويه بالقبح ، ولم يجزه الا في الشعر فكثير ، منه الفصل بين المضاف والمضاف اليه ، قال : « ولا يجوز : ياسارقَ الليلةَ أهلِ الدار ، إلا في شعرٍ كراهية أن يفصلوا بين الجار والمجرور » . ثم أورد مجموعة من الشواهد الشعرية وقال : « فهذا قبيح[٤] » ، وقال في موضع آخر : « كما لا يجوز لك أن تفصل بين الجار والمجرور بحشو الا في شعر[٥]» . ومن قوله في الموضعين على تباعدهما في الكتاب يتأكّد عندك أن القبيح وغير الجائز عنده سواء .

وله في موضع آخر تعبير يختلف في اللفظ ، ويتفق في الدلالة على

---

(١) نفسه : ٢٠٩/١

(٢) انظر: ٩٩/١ ، ٤٠٧ ، ٢٦٩/٢ ، ٣٦٢ ، ٣٧١ ٣٨٢ ، ٦٦/٣ ، ٨٢ ، ١١١ ، ١١٥

(٣) نفسه : ٦١/٣ وانظر : ١٠١/٣

(٤) نفسه : ١٧٦/١ ـ ١٨٠

(٥) نفسه : ١١١/٣

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ما تقدم ، فقد ذكر أنهم يحتملون في الشعر أحيانا «قبح الكلام حتى يضعوه في غير موضعه[١] » فوضع الكلام في غير موضعه لا يختلف في الدلالة عن غير الجائز • وقال أيضا : « فان قلت : هل زيداً رأيت ، وهل زيد ذهب • قُبُح ، ولم يجز الا في الشعر[٢] » •

وقد يتناوب على الظاهرة الواحدة في نص واحد مصطلحان: القبيح، والضعيف ، ثمَّ يُصَرِّح بأنها لا تجوز في غير الشعر • قال سيبويه : « واعلم أنه قبيح أن تقول : مررت برجلٍ لافارسٍ • حتى تقول : لافارس ولا شجاعٍ ••• وقد يجوز على ضعفه في الشعر[٣] » •

أما ما استخدم فيه لفظ « رديء » فقليل ، كقول سيبويه : «وقد جاء في الشعر: حسنة وَجْهِها• شبهوه بحسنة الوجه • وذلك رديء[٤] ».

٢ ـ القسم الثاني :

ويغلب على الظن أن سيبويه كان يرى في هذا القسم ضرباً خاصاً من مستويات اللغة ، فهو عنده لغة خاصة بالشعر ، ولكنها وقعت في الكلام أيضا ، ولعله كان يحاكي شيخه الخليل[٥] ، فيراها لوناً من ألوان التفاعل بين لغتي الشعر والنثر ، لان لغة الشعر ـ لكثرة سماعها وانشادها ـ فرضت بعض العبارات الخاصة على لغة الكلام نفسه•

والذي يرجح هذا الظن حتى يجعله قريبا من اليقين أن ظواهر اللغة هنا تختلف عما رأيناه في القسم الاول ، وعما سبق أن تحدثنا عنه وعرضنا

---

(١) نفسه : ٣١/١
(٢) نفسه : ٩٩/١
(٣) ٣٠٥/٢ وانظر : ٣٧٨/٢ ، ٣٨٠ ، ٧٠/٣
(٤) نفسه : ١٩٩/١
(٥) أنظر : ١٣٤/٢ ـ ١٣٥

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أمثلة منه ، فهي لون من تراكيب الشعر اتخذت ستاً لا يخلو من انحراف عن التراكيب المألوفة الموافقة لأعراف العربية ، ولكنها مع ذلك لم تبلغ مبلغ « حسنة وجهها » ، ولا مبلغ « مررت برجلٍ لا فارسٍ » وأمثالهما.

من هذا الضرب عند سيبويه أن تقع النكرة مبتدأ،لأن في ذلك لبساً، وهذا الاسلوب « قد يجوز في الشعر ، وفي ضعف من الكلام[٣]» ـ كما يقول ـ وذكر منه أيضا أن يقع الخبر فعلا دون أن يذكر فيه ضمير المبتدأ منصوبا ، مما يجعل الفعل عاملا في المبتدأ نفسه على أنه مفعول به، قال : « ولا يحسن في الكلام أن يجعل الفعل مبنياً على الاسم ، ولا يذكر علامة إضمار الاول حتى يخرج من لفظ الإعمال في الاول ، ومن حال بناء الاسم عليه ، ويشغله بغير الاول حتى يمتنع من أن يكون يعمل فيه ، ولكنه قد يجوز في الشعر ، وهو ضعيف في الكلام ، قال الشاعر ، وهو أبو النجم العجلي :

قد أصبحت أم الخيار تدّعي عليّ ذنباً كلّه لم أصنعِ

فهذا ضعيف ، وهو بمنزلته في غير الشعر ، لان النصب لا يكسر البيت ، ولا يخلّ به تَرْكُ إظهار الهاء ، وكأنه قال : غير مصنوع ، وقال امرؤ القيس :

فأقبلتُ زحفاً على الركبتين فثوبٌ نسيتُ وثوبٌ أجرّ

وقال النمر بن تولب :

فيوم علينا ويوم لنا ويوم نُساءُ ويومٌ نُسَرّ

(١) نفسه : ٤٨/١

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

سمعناه من العرب ينشدونه • يريدون : نُساءُ فيه ونسر فيه • وزعموا أن بعض العرب يقول : شهر ثَرى ، وشهرٌ ترى ، وشهر مرعى• يريد : ترى فيه • قال :

ثلاثٌ كلُّهن قتلتُ عمداً فأخزى الله رابعةً تعودُ

فهذا ضعيف ، والوجه الاكثر الاعرف النصب ، وانما شبهوه بقولهم: الذي رأيت فلان ، حيث لم يذكروا الهاء ، وهو في هذا أحسن[1] » •

وربما اتضح في هذا النص سيطرة اللغة الشعرية على لغة الكلام ، فعلى الرغم من أن الشاعر الاول يستطيع أن يقول : كلَّه لم أصنع ،بنصب (كله) وأن الآخر قادر على القول : فثوباً نسيت وثوباً أجر ، وكذلك الشاعران الآخران ، الا أنهم جميعا ركبوا متن اللغة الشعرية الشائعة يومئذٍ ، وآثروها على النظام الآخر الذي يجعل الاسم تابعاً للفعل بدلا من أن تنعكس الصورة فيقع الفعل مخبراً عن الاسم ، بل ان هذا السمت من التراكيب انتقل الى النثر ، فقال القائل : وشهرٌ ترى • فآثر أن يُلْحق ثانية العبارات الثلاث بأختيها المكتنفتين لها في الإعراب ، ولم يقل : شهراً ترى • كما يقتضي النظام العام في العربية ، لأنه حاكى في ذلك لغة الشعر•

وفي موضع آخر نجد الاتجاه نفسه ، اذ يحدثنا سيبويه عن تداخل اللغتين : الشعرية والنثرية ، كحديثه عن قول العرب : مُرْهُ يَحْفِرها • قال : « وقد جاء رفعه على شيء هو قليل في الكلام ، على : مُرْهُ أن يحفرها • فاذا لم يذكروا « أن » جعلوا المعنى بمنزلته في عسينا نفعلُ • وهو في الكلام قليل ، لايكادون يتكلمون به ، فاذا تكلموا به فالفعل في

(١) نفسه : ١/ ٨٥ ـ ٨٧

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

موضع اسم منصوب ، كأنه قال : عسى زيد قائلا . ثم وضع (يقول) في موضعه ، وقد جاء في الشعر ، قال طرفة بن العبد :

ألا أيهذا الزاجري أحضُرُ الوغى وأن أشهدَ اللذاتِ هل أنت مخلدي

وسألته عن قوله عز وجل : قل أَفَغَيْرَ الله تأمرونّي أعبدُ أيها الجاهلون .» فقال : تأمروني ، كقولك : هو يقول ذاك بلغني . فـ«بلغني» لغو ، فكذلك « تأمروني » كأنه قال : فيما تأمروني . كأنه قال: فيما بلغني. وان شئت كان بمنزلة :

ألا أيهذا الزاجري أحضُرُ الوغى[1]» .

إن الظاهرة هنا غنية الدلالة على ما نذهب اليه ، فالعبارة المدروسة هي من « الكلام » لا من الشعر ، والى جانبها آية قرآنية وبيت من الشعر، وقد اشترك في تحليلها الخليل وسيبويه ، ويغلب على الظن أن المسألة في جذورها من مذاهب الخليل ، وأن سيبويه يعرضها كما وعاها منه.

غير أننا نرى الخليل يلتمس للآية القرآنية وجهاً آخر ، كأنه يريد أن ينأى بها عن « القليل من الكلام » الذي ذكره تلميذه في مطلع التحليل ، ثم لايلبث أن يردها الى حذف (أن) وارتفاع الفعل المضارع من جراء ذلك.

ومهما يكن من شيء فان القسم الثاني من لغة الشعر لايخلو من نظرة ضيقة ، ذلك أن الخليل وسيبويه يحكمان على ظواهره بالقلة أو بالضعف ، مستهديين بما وقع لهما من المادة اللغوية المجموعة لزمنهما ، ومثل هذه النظرة تنسى التطور اللغوي ، اذ يحتمل أن تكون هذه الظواهر

(١) نفسه : ٣/٩٩ ـ ١٠٠

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

التركيبية من بقـايا العربية القديمة ، ولكنها أخذت تتضاءل على الزمن لظهور تراكيب أخرى تزاحمهـا في التعبير ، غير أنها لم تنقرض تساما بل بقيت آثار لها قليلة تظهر بين حين وآخر في نظم شاعر ، أو في أسلوب ناثر ، فاذا وافقنا الخليل وسيبويه في الحكم عليها بالقلة ، كان قبول الحكـم عليها بالضعف لايخلو من عسر .

الخـــــاتمة

نخلص من جميع ما وقفنا عليـه من نظرية الضرورة عنـد العالمين الجليلين بمجموعة من الملاحظات ، هي :

١ ــ انها دراسة واعية لمستويات التعبير في اللغة العربية ، تكشف عن الرؤية اللغوية الشاملة عند الخليل وسيبويه ، فهي تختلف عـن الخطأ ، وتباين اللحنَ ، لانهـا تساير أنظمة اللغـة الاساسية ، وان خالفت النظم السائدة المرعية ، وقد قامت على أسس ثلاثة من التوجيه ترجع في حقائقها الى العلاقة بين اللغة والفكر ، هي : الشـبه ، والعودة الى الاصـل ، والتماس وجه من وجوه العلة أو القياس .

٢ ــ وهي أيضا ضرب من ضروب الخروج على نظم اللغة الشائعة، كالممنوع من الصرف ، والاسم المبني ، وإعراب الفعل المضارع ، ولكنها مع ذلك تختلف عن هذه الظواهر بأنها ظلت ظاهرة فردية لم يكتب لها أن تحظى بقبول الجماعة اللغوية لتغدو نظاماً خاصاً ضمن النظم الكثيرة .

٣ ــ وهي كذلك مستوى مـن التعبير لايسمو الى منـزلة اللغة الفصيحة ، تضطر الشاعرَ فيها قيود الشعر الكثيرة ، من وزن ، وقافية،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

والتزام حركة إعرابية خاصة ، وقد عبر سيبويه وشيخه عن هذه السمة فيها بغيرما عبارةٍ ،فأكثرا من استخدام الالفاظ المشتقة من الجذر «ض•ر•ر» وقرناها الى مستويات لغوية غير مستحبة ، كالقبيح ، والرديء ، وغير الجائز •

٤ــ صار كلام سيبويه وشيخه مصدر النحاة الخالفين في دراسة الضرورة، وسببَ اختلافهم في تحديدها، وقد رأينا ألا نعرض شيئا من ذلك في هذا البحث ، لان الغاية منه هي الكشف عن « النظرية » نفسها ، فلا يهمنا أنْ يكون المتأخرون كلهم أو بعضهم فهموها أو لم يفهموها ، ولذلك اعتمدنا كتابَ سيبويه وحده ، ولم يحثنا شيء على التماس المراجع •

ونأمل أن نكون قد بلغنا من ذهن الخليل وتلميذه مبلغا صحيحا في هذا البحث ، والله من وراء القصد •

محمد خير الحلواني
أستاذ اللغويات المساعد في جامعة محمد الاول
وجدة ـ المغرب

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net